

الكتاب والثقافة في ليبيا

محمد بن مسعود رئيس اللجنة الليبية

لهيئة موسوعة المغرب العربي

والحبوب الغذائية وأشجار الفواكه والخضروات والحلفاء والاعناب والابل والبقر والدواجن ، وأما الثروة الطبيعية فأهمها البترول والأسماك وملح الطعام والأملاح الكميائية (النظرون) وخامات الحديد والفسفاط .

وقامت فيها أخيرا حركة كبيرة للتصنيع الآلي وافرة الانتاج ، لمطبات الأسماك والفواكه والخضراوات والوقود (الكبريت) ، وأوعية الدقيق وتخريج الأواني المعدنية ونسيج الاقمشة على اختلاف أنواعها .

والزائر لليبيا الآن ، يجد فيها كل ما تراه العين في المغرب ، من مظاهر الحضارة الحديثة والقيمة ومن مظاهر التقاليد الاسلامية والافرنجية .

وتاريخ ليبيا مكتظ بالحوادث الجسام وبمعالم الفخر والمجد ، لذلك من العسير على بل ومن الظلم له ، أن أتیکم عنه بلمحات مشرقة في بضع دقائق ، إذ ليس لدينا جميعا فسحة من الوقت للاستماع الي في محاضرة خاصة أو محاضرتين ، ومما يخفف عنى هذا العبء الثقيل أننا جئنا لمعرض الكتاب بنماذج من مؤلفاته التي اشتملت عليه اجمالا وتفصيلا ، ومن هذه مثلا «تاريخ ليبيا العام» في جزئين كبيرين .

وغاية ما يمكنني ايجازه من لمحات هذا التاريخ ، أنه استنادا على الاكتشافات الأثرية التي وجدت عندنا بفزان وجبل العوينات ، وما عثرت عليه أخيرا سنة 1962 م. بعثة (فابريتوكوري) الحكومية ، وغير ذلك من النقوش الفرعونية وروايات أبي التاريخ (هيرودوت الاغريقي) ، نستطيع القول مما تقدمت الإشارة اليه ان الليبيين القدماء وجدوا بهذه الأرض منذ العصور

التي الاستاذ محمد بن مسعود رئيس اللجنة الليبية لهيئة موسوعة المغرب العربي ومندوب المملكة الليبية في موسم الكتاب العربي محاضرة في هذا الاطار جاء فيها :

ان ليبيا التي يربطها بالمغرب ، التاريخ المتشابه والتربة المتماثلة واتحاد اللغة والدين والمادات يحددها شرقا مصر ، وشمالا البحر الابيض المتوسط وغربا تونس والجزائر ، وجنوبا النيجر والتشاد والسودان ، ويبلغ عدد نفوسها نحو المليون ونصف المليون نسمة .

وتتكون من ثلاثة أقاليم ، وهي طرابلس وبرقة وفزان وأكبر مدنها النابضة بالحياة الاجتماعية والاقتصادية طرابلس وبنغازي ومصراته وسببه والبيضاء، وأهم مدنها الأثرية لبددة وشحات وصبراتة وجرما .

وتكسو السهول الخصبة شمالا ، في الأراضي المتقاربة الي ساحل البحر ، وفي وادي الشاطيء والآجال بفزان وبهذه المناطق الزراعية ، تزدهم المسدن والسقري ويزداد النشاط العمراني والتجاري .

وفي برقة مرتفع عظيم ، مغطى بالأشجار الطبيعية، يسمى الجبل الأخضر وفيه كثير من الينابيع الجارية بالماء العذب، أشهرها نبع درفة وعيون مارة وفي طرابلس مرتفع آخر يقال له الجبل الغربي ، ويمتاز عن الجبل الأخضر بكونه عامرا بالسكان والفلاحة الشتوية على الأمطار وأشجار الزيتون وكروم العنب والتين ، ومن مدنه الشهيرة غريان ويفرن وجاد وخالوت .

وأهم ثروة زراعية ليبيا ، الزيتون والنخيل

الحجرية ، وفي العصور التالية لها كانت لهم حضارة زاهرة ، ونابعة من صميم بيئتهم ، ومن مظاهرها أنهم :

1 - بنوا المنازل وشيدوا القرى واشتغلوا بالزراعة.
2 - تعاطوا التجارة وصنعوا باتقان الاشياء الفخارية .

ثم اسسوا في هذا الجزء دولة ليبية ، دامت مائتين وعشرين سنة وبنوا هناك عاصمة جديدة وهي مدينة « بسطة » ، وكان من أشهر الملوك الليبيين بمصر ششلق الأول ، واتسعت فتوحاته شرقا الى فلسطين ، وجنوبا الى بلاد النوبة .

3 - استعمل امراؤهم الأواني من الذهب والفضة.
4 - جعلوا للغتهم حروف كتابة وهي التي اشتهرت في التاريخ السحيق للشمال الافريقي باسم « الخط الليبي القديم » .

ويعد ششلق تنازع الملوك الليبيين بمصر على السلطة ، فكان كل واحد منهم يريد لها لنفسه ، وصاروا لهذه الاسباب يقاتل بعضهم بعضا ، وسامت احوال وادي النيل بعد ازدهاره أيام ششلق ، لعدم اهتمام اخلافه بمصالح الناس ، فكرههم المصريون وتحالفوا ضدهم مع جيرانهم (النوبيين) ثم حارب الطرفان الليبيين الى أن تغلبوا عليهم ، وازالوا دولتهم من وادي النيل سنة 725 بعد الميلاد .

5 - كان لهم حكومات وملوك ومن هؤلاء «كابور» ومرماريو وششلق .

(4) وعلى اثر انتهاء الليبيين من مصر ، تعرضت بلادهم لاحتلالات اجنبية كثيرة ، اذ استولى عليها نظير الشمال الافريقي ، كل من الاغريق والقرطاجنيين والرومان والبرنطيين .

6 - كانت لهم فنون جميلة من رسومات الجبس والتصوير والنقش .

وفي العهد الروماني بليبيا ، ظهر من بين ابناءها الافذاد ، شخصية ذائعة الصيت في التاريخ الروماني ، ألا وهو الامبراطور « سبتيموس سفاروس » ، ولد سنة 146م. بقرية مجاورة لمدينة لبة ، وتوفي في احدى غزواته لانجلترا سنة 211 م. ويمكن ازارني مدينة طرابلس أن يشاهدوا نصبا لتمثاله امام سوق المشير .

7 - كانت جيوشهم مجهزة بأنواع الأسلحة القديمة والعربات الحربية ، ولها مخيمات كبيرة وصغيرة من الجلد .

(5) وفي عهد الخلفاء الراشدين فتح ليبيا عمرو بن العاص سنة 23 هـ . 643 م. وبذلك كانت ليبيا اسبق البلدان المغربية اتباعا للاسلام وتحديثا بلغته، واعتبارا من قيام الدولة الاموية ، الى أواخر حكم بني حفص المنتسبين للموحدين ، فان تاريخ ليبيا غالبا ، متحد مع تاريخ الشمال الافريقي في جميع هذه المراحل ، بل وحتى في تعرضاته لغزوات الصليبيين .

(2) ومنذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ، كان للليبيين مع جيرانهم المصريين ، أقوى صلة اجتماعية وسياسية ، وهي اللصحة التاريخية عنهم ، الجديرة بأن تؤثرها بنصيب من الايضاح ، ففي ذلك الحين كانوا كلما تعرضت ليبيا لجفاف كبير ومجاعة ، تتجه قبائلهم شرقا الى وادي النيل المليء بالخيرات الزراعية ، وتذهب قراء المتطرفة نحو الصحراء بغزوات كاسحة متوالية .

ولما حاربهم ملوك الفراعنة بشدة ، وعجزوا عن كف غاراتهم ، أرادوا أن يجدوا لزعمائهم وبعض أفرادهم معيشة ثابتة ، فعينوا كثيرا من هؤلاء في الجيوش المصرية ، ضباطا وجنودا مرتزقة ، ورفعوا شجعانهم الى مراتب القادة والحكام ، وتزوج الملك «خوفو» باني الهرم الأكبر باميرة ليبية .

(6) وفي سنة 551م. انتزع ليبيا من الاسبان الأتراك العثمانيون ، وفي هذا العهد نشأت فيها ، سنة 1711 م. الامارة الثورقمانليه ، وكانت على نمط حكم البايات بتونس والدايات بالجزائر ، وامتد نفوذها ، أيام يوسف باشا القره مانلي الى « برنو » بأفريقيا الغربية.

(3) وعلى الرغم من هذه الصلات الاجتماعية والسياسية بين الطرفين فان الليبيين الآخرين وهم المقيمون بأرضهم ، لم يبطلوا غاراتهم الاولى بتاتا بل بمرور السنين زادوا عنفا وضراوة ، واغتنموا في بعضها اختلال الأمور بمصر لضعف ملوكها الفراعنة ، فجهزوا جيشا كبيرا ، من المشاة والفرسان والعربات الحربية ثم هجموا به سنة 945 قبل الميلاد ، على الجزء الشمالي من

نيابية عامة ، تكون بها للبلاد برلمان باسم مجلس الامة الليبية من فرعين هما النواب والشيخوخ .

نهضة الكتاب الليبي

وبعد هذه اللمحات المجملّة ، لتاريخ ليبيا قديما وحديثا ، أتحوّل عنها الى النبتة الاخرى وهي الخاصة بالكتاب الليبي .

(1) - فالكتاب بمعناه المطلق ، هو المرأة الصافية ، لحضارات الأمم الغابرة والحاضرة ، والمترجم عن أمجادها ومفاخرها ، والمعرف بعلمها وآدابها .

والكتاب الليبي ، ونعني به غير المضمون بسين دفتين ، وجد منذ ألفي سنة قبل الميلاد ، إذ كان للغتة وقتئذ حروف كتابية سجل بها أجدادنا الأولون أفكارهم ، نقشا على الحجارة بمثابة الكتاب المتعارف بيننا الآن ، وما برحت قبائل الطوارق ، بأراضي غات جنوبي فزان تستعمل خط حروفه فيما بينها .

وفي عهني الاغريق والرومان بليبيا ، افتتح كثير من المدارس بمدن شحات ولبدة وصبراتة وغيرها ، وقد عظم فيها شأن الكتاب وتفنن ، لما كان يتضمنه من العلوم والآداب المختلفة ، باللغتين الاغريقية واللاتينية ، ومن مدرسة لبدة وعلى كتبها تخرج الامبراطور سفاروس ، وأتم تحصيله العالي بروما ، حاصلًا على شهادة الحقوق

(2) - ومن أيام العباسيين الى أواخر بني حفص ، نجد أن الكتاب الليبي العربي كان تصنيفه في مختلف العلوم الاسلامية ، ومن لغة ونحو وحديث وتفسير وتوحيد وفقه وتاريخ وأدب وشعر ، وكان أسلوبه الانشائي نظير أمثاله من المؤلفات الأخرى السائرة في تلك العهود ، فهو ايجاز لكلام المتنون وتوضيحها بالحواشي والتعقيب وأما اسهاب العمل أو تقصير المخل .

ولكن الكتاب الليبي في وقتنا الحاضر ، وكما سترون بالمعرض من نماذجه قد تنحى تماما في تأليفه عن طريقة المتن والهوامش وتأثر أصحابه بأساليب التعمير الفني الحديث ، فالتزموا فيه المأخذ القريب والمعنى الجلي ، وهذا ولا تفوتنا الاشارة الى أن كتابنا المدرسي كذلك نعتبره من أمثل أنواعه المنهجية ، أسلوبا وإفادة وتركيزا للمعلومات المقررة وأسئلة موجّهة وخرائط وصورا .

وكان لليبيا زمن القره مانليين اسطول عظيم ، فرض الاتاوة على جميع السفن الاجنبية المارة بالبحر الابيض المتوسط ، ومن حسنات هذه الامارة أنها جعلت اللغة العربية لسان البلاد الرسمي ، في جميع المعاملات الحكومية والدولية .

(7) وبقيت الامارة القره مانلية الى سنة 1835 م . ثم رجعت لليبيا بعدها للحكم العثماني مرة ثانية ، ثم انتهى هذا الحكم باحتلال ايطاليا لليبيا سنة 1911 م .

ومنذ ما وطلت أقدامها لليبيا لم يفتر أبناؤها الاشواوس ، بقيادة عاملهم الملك ادريس عن مناضلتها بالحروب الهوجاء ، والثورات المسلحة العنيفة الى قيام الحرب العالمية الثانية وانضمام ايطاليا فيها الى جانب المانيا ، ووجدوا في هذا الانضمام فرصة ثمينة لانقاذ وطنهم منها ، فتسارعوا من داخل ليبيا وخارجها الى مصر ، مكان هجرة قائدهم الأول وزعيمهم الأبى السيد محمد ادريس السنوسي ، فتحالفوا مع الانجليز ضد ايطاليا ، ثم كونوا جيشا قويا تعاداه خمسة عشر ألفا . واشتركوا مع الانجليز بمحاربتها ، منذ سنة 1940 م . الى سنة 1943 م . وفي هذه السنة الأخيرة تم لهم تحرير التراب الليبي العزيز .

(8) وبعد ذلك حاولت الأهواء الاستعمارية ، تقسيم ليبيا الى ثلاث جهات باعطاء فزان لفرنسا وطرابلس لايطاليا وبرقة للانجليز ، وقد عرفت هذه الفكرة بالمشروع الثنائي ، إذ أعده كل من وزيرى خارجية بريطانيا وايطاليا المستر بينف والسنيور سيفورزا ، ولما عارضه الوفد الليبي بهيئة الامم المتحدة معارضة شديدة صاخبة ، وناصرته هنالك الوفود العربية كلها ، وقامت عليه فسي البلاد تظاهرات خطيرة ، كادت تنفجر الى مقاومات مسلحة اضطرت هيئة الامم الى الغاء المشروع الثنائي ، وأصدرت يوم 21 نوفمبر سنة 1949 م . قرارها التاريخي الهام ونصه (قيام دولة ليبية ذات سيادة ، في فترة لا تتجاوز أول يناير سنة 1952 م .) وفي يوم 24 ديسمبر سنة 1951 م . اعلنت ليبيا استقلالها الناجز ، بعد أن وضعت له الجمعية التأسيسية دستورا ، أقر نظام الحكم الملكي ، وعين الملك ادريس رئيسا للدولة ، وفي أول يناير سنة 1952 م . تسلمت الحكومة الليبية جميع المصالح الرسمية ، التي كانت تديرها حكومات الحلفاء العسكرية وفي 9 فبراير سنة 1952 م . أجريت في ليبيا أول انتخابات

نهضة ليبيا الثقافية

أ - الثقافة التربوية

وبفضل توجيهات عامل ليبيا العظيم ، سارت حكومتنا خطوات واسعة المدى في جميع الميادين الثقافية المتنوعة ، ولو شئنا هاهنا أن نرفي الكلام حقه عن جميع ما يندرج ، تحت كلمة نهضة ليبيا الثقافية ، أحوجنا الأمر الى كتاب خاص بها ، لا الى صفحات قليلة موجزة .

(1) - فحين خرج الاستعمار من ليبيا ، لم يترك فيها غير (150) مدرسة ابتدائية اسما وأولية حقيقية يتردد عليها نحو (3500) تلميذ ، ويقوم بالتدريس لهم من الليبيين نحو (300) معلم ، ولم يكن من بينها في ذلك الحين ولو مدرسة واحدة اعدادية .

(2) - أما في هذه السنة المدرسية (64-65) ، (وأرجو الا تنسوا تعداد ليبيا الضئيل بالنفوس) فقد ارتفعت أعمال الحياة الثقافية في قطاعات التربية والتعليم الى :

أ - (732) مدرسة ابتدائية للذكور والاناث ، عدد تلاميذها وتلميذاتها (168 552) .

ب - 103 مدارس اعدادية فيها (17 927) طالبا وطالبة .

ج - (18) مدرسة ثانوية تضم بين جدرانها (4 279) طالبا وطالبة .

د - ثم (7) معاهد للمعلمين والمعلمات ، تشتمل على (1 224) طالبا وطالبة .

هـ - ومن غير ما تقدم ذكره ، ففي ليبيا أيضا طائفة من المدارس الفنية والمهنية ، وهي : (5) للتجارة والهندسة و (3) صناعية و (3) زراعية .

(3) - وتوجت رؤوسها كلها بالجامعة الليبية ، التي تضم (5) كليات للحقوق والتجارة والآداب والعلوم والهندسة .

(4) - ثم جامعة السيد محمد بن علي السنوسي ، التي أمر بتأسيسها السيد ادريس ، ملك ليبيا ، احياءا وتخليدا لذكرى جده العظيم التي تحمل اسمه ، وهي تشمل عددا من الكليات في الشريعة واللغة واصول الدين ، ولها في أنحاء ليبيا معاهد ابتدائية وثانوية ، ومناهجها

قائمة على رسالة الجامعة الدينية . كما ان هذه الجامعة ينتسب اليها ، الكثير من طلاب الشعوب الاسلامية ، ومن هؤلاء مثلا طلاب من عمان والجنوب العربي ، وغرب افريقيا ، ويدرسون ويطعمون بالمجان .

(5) - وقامت ليبيا بأعمال باهرة لصيانة آثارها الخالدة ، وللكشف عن الذي لا يزال منها تحت الترسى قاصدة بذلك أن تفتح مجالات ثقافية أخرى لتعريف جيلها الحاضر والمستقبل ، بترائه الحضاري المجيد ومفاخر أجداده وآبائه ، كما يوجد في البلاد طائفة من المتأخر الأثرية ، أهمها متحف القلعة بطرابلس ومتحف صبرانة ومتحف شحات ومتحف جرما .

ب - الثقافة الادبية

(1) وقد أنتج الكتاب والادباء الليبيون ، عشرات من المؤلفات القيمة ، في التاريخ والجغرافية والتخصص والتمثيل المسرحي والقانون والموسيقى واللغة والشعر والعلوم الاجتماعية والزراعة وفي كتب التربية المدرسية ، وبعض هذه المؤلفات باللغة الانجليزية والاطالية .

(2) - وبلا مبالغة نستطيع القول أن هذا الانتاج الفكري في جملته ، بلغ من الاجادة في التعبير وسلامة الذوق وافادة البحث والاخراج الفني ، ما يجعله يرتقي الى مصاف أنواعه في البلدان العربية .

غير أنه لحدائنه كثير من هؤلاء الادباء في الحياة العلمية الجديده ، فان قيمة انتاجهم الفكري ، لم تصل بعد الى المستوى العلمي الخصب الذي عهدناه في كتب عباس محمود العقاد وعلال الفاسي مثلا .

(3) - ومما ينبغي أن نشير اليه بهذه المناسبة ، أن الحكومة الليبية قد اتجهت الى باكورة هذه النهضة الادبية بالتشجيع الكبير ، فجعلت لها جوائز مالية مغرية ، تمنحها بوساطة لجان رسمية خاصة بها ، لنبغاء الفكر الليبي ، الذين ينتجون أي مؤلف ممتاز بأبحاثه الثقافية ، أو يترجمونه عن اللغات الاجنبية شريطة أن يكون ذا طابع شخصي لصاحبه ، وله صلة وثيقة بمعالم الحياة الليبية .

(4) - ومن العوامل الاخرى للنهضة الثقافية ، أنه يوجد في البلاد عدة دور للكتب ، على اختلاف أحجامها وموضوعاتها وحدائنها وقدمها . وتشتمل هذه الدور على

وشرعبت هذه اللجنة تعمل بنشاط ، لاثارة النبوغ الكامن بأذهان الشباب الموهوب المثقف ، في نواحي الرسم والتصوير والتمثيل المسرحي وغير ذلك .

(2) - وليبيا الآن فرقة فنية استعراضية للرقص الشعبي المعروف باسم « فولكلور » تشرف عليها وزارة الانباء والارشاد وهي على نمط أمثالها من فرق المغرب وتونس ومصر ، وقد أحرزت استعراضاتها الرائعة اعجاب كل من شاهدا من الاجانب .

(2) - ومن المشروعات الهامة في هذه المجالات الفنية أن الحكومة وافقت أخيرا على انشاء معهد للموسيقى ، ليعزز قيام هذه الفرقة ، وينمي في المجتمع الشعبي الانواع والاحاسيس الوجدانية .

نفس المؤلفات والمخطوطات والوثائق والمستندات الهامة . ومن اكبرها مكتبة الاوقاف ومكتبة الحكومة ودار المحفوظات بمدينة طرابلس ، ثم مكتبات بنغازي والبيضاء وسبها ، والمكتبات الفرعية بمراكز المحافظات الليبية .

ج - ثقافة الاعلام والفنون

(1) - وتعتبر وسائل الاعلام أيضا ، وهي الصحافة والاناعة والفنون الشعبية ، من أبرز المظاهر الثقافية في ليبيا ، ففيها الآن ثلاث جرائد يومية وعشرة أسبوعية وطائفة من المجلات الراقية بأبحاثها وصورها الملونة ، وزيادة على هذا فان وزارة الانباء والارشاد الليبية أوجدت منذ السنة الماضية لجنة عليا لرعاية الفنون والآداب ،